مَوَاقِفُ النَّاسِ أمَامَ مُشكِلةِ الفَقْرِ

وقف الناس من قديم الزمن أمام مشكلة الفقر مواقف شتى نوضحها فيما يلي:

أ- موقف المقدسين للفقر:

فمنهم طائفة من المتزهدين والمترهبنين ودعاة التقشف والتصوف، زعموا أن الفقر ليس شراً يطلب الخلاص منه، ولا مشكلة يطلب لها العلاج، بل هو نعمة من الله يسوقها لمن يحب من عباده، ليظل قلبه معلقًا بالآخرة، راغبًا عن الدنيا، موصولاً بالله، رحيمًا بالناس، بخلاف الغنى الذي يطغى ويلهى ويؤدي إلى البطر والبغى.

ومن هؤلاء من يقول: إن هذا العالم كله فساد، والدنيا كلها شر وبلاء، والخير كل الخير في التعجيل بفناء هذا العالم، وتقصير مدة بقائه، أو على الأقل مدة إقامة الإنسان فيه، ولذا يجب على العقلاء التخفيف من أسباب الحياة وطيباتها، وعدم المشاركة فيها إلا بقدر ما يمسك على الإنسان الحياة.

وقد وجد في الأديان الوثنية والأديان السماوية من يدعو هذه الدعوة، ويُمجد الفقر ويقدسه، لأنه وسيلة لتعذيب الجسد، وتعذيب الجسد وسيلة لترقية الروح، وشاع هذا عند بعض متصوفة المسلمين بتأثير الثقافات الأجنبية التي شابت الثقافة الإسلامية الأصيلة، وكدَّرت صفاءها، كالصوفية الهندية، والمانوية الفارسية، والرهبانية المسيحية، ونحوها من النِّحل الدخيلة على حياة المسلمين.

ولا زلت أذكر نصاً قرأته في بعض هذه الكتب، نقلاً عن أحد هذه الكتب المنزلة السابقة فيما زعموا، يقول النص: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته»!![1]

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣٧) والقرطبي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فلمَّا نسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوَاب كلِّ شيءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] (٦/ ٤٢٦)، وقال الحافظ العراقي: أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، من رواية مكحول. عن أبي الدرداء، ولم يسمع منه. قال: رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى. . . .» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف (٤/ ٨٨).

ومن العبث أن نطالب هذا الصنف من الناس الذي ينظر إلى الفقر هذه النظرة، أن يقدم لنا علاجاً لمشكلة الفقر، وهو لا يعتبر الفقر مشكلة أصلاً.

ب ـ موقف الجبريين:

وهناك طائفة ثانية تخالف هؤلاء في النظرة إلى الفقر، وترى فيه شراً وبلاءً، ولكنها ترى أنه قضاء من السماء لا يجدي معه الطب والدواء، ففقر الفقير وغنى الغني بمشيئة الله تعالى وقدره، ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أغنياء، ومنح كلاً منهم كنوز قارون، ولكنه تعالى شاء أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ليبلوهم فيما آتاهم، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. إلى غير ذلك من الكلام الحق الذي يراد به الباطل.

والعلاج الذي يقدمه هؤلاء لمشكلة الفقر ينحصر في وصيتهم للفقراء أن يرضوا بالقضاء، ويصبروا على البلاء، ويقنعوا بالعطاء، فالقناعة كنز لا يفنى، وثروة لا تنفد.. والقناعة عندهم هي الرضا بالواقع على أي حال.

وهذه الطائفة «الجبرية» لا تهتم بالأغنياء وما هم عليه من سَرَفٍ وتَرَفٍ، فتوجه إليهم نصيحة ما، إنما توجه نصيحتها إلى الفقراء، ونصيحتها: هذا قسم الله لكم فارضوا به، ولا تطلبوا شيئًا فوقه، ولا تحاولوا أن تغيروه.

جـ ـ موقف دعاة الإحسان الفردي:

وهناك طائفة ثالثة تشارك الطائفة الثانية في مجمل نظرتها إلى الفقر، وترى فيه شراً وبلاء كذلك، وتعده مشكلة تتطلب الحل.

غير أن حلها لا يقتصر على وصية الفقراء بالرضا والقناعة كالطائفة الثانية، بل تتقدم خطوة أخرى، فتوُصي الأغنياء بالبذل والإحسان، والتصدق على الفقراء، وتعدهم بجميل المثوبة عند الله إذا استجابوا لهذه الدعوة الخيرة، وقد تنذرهم بسوء المصير، وعذاب السعير، إذا قسوا على الفقير والمسكين.

وهذا الحل لا يحدد مقادير معينة تجب على الأغنياء للفقراء، ولا يفرض عقوبة خاصة على من يمتنع عن هذا الواجب، ولا يشرع من الأنظمة ما يضمن وصول

المعونة المطلوبة إلى مستحقيها، فكل اعتماده: على قلوب المؤمنين، وضمائر المحسنين، الذين يرجون الثواب، ويخشون العذاب: ثواب الآخرة لمن تصدق وأحسن، وعذاب الآخرة لمن بخل واستغنى.

وهذه هي النظرة التي اشتهرت بها الأديان السابقة على الإسلام: الاعتماد على الإحسان الفردي، والصدقات التطوعية في علاج الفقر بغض النظر عن الأفكار التقديسية والجبرية التى كانت سائدة لدى الكثيرين من رجال الأديان وسدنتها. وهي النظرة التي سادت أوروبا طوال القرون الوسطى، فلم يكن للفقراء فيها حق معلوم، ولا نصيب مقدر محتوم. إلا ما تجود به أنفس الخيرين من عباد الله الصالحين.

د ـ موقف الرأسمالية:

وهناك طائفة رابعة ترى أن الفقر شر من شرور الحياة، ومشكلة من مشكلاتها، ولكن المسئول عنه هو الفقير نفسه، أو الحظ، أو القدر، أو ما شئت: لا الأمة، ولا الدولة، ولا الأغنياء، فكل فرد مسئول عن نفسه، حر في تصرفه، حر في ماله.

وزعيم هذه الطائفة هو قارون الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، ولما نصحه قومه بقولهم: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٧٧]. كان جوابه الصريح ما حكاه القرآن: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى**﴾ [القصص: ٧٨].

وكذلك يرى أتباع النظرية القارونية أن ما جمعوه من المال إنما جمعوه بذكائهم وحدهم وأن مالك المال أحق بماله من سواه، وله حرية التصرف فيه بما يرى ويشاء. فإذا جاد على الفقير بشيء من ماله فهو صاحب الفضل وحسب المجتمع في نظر هؤلاء أن يتيح الحرية للجميع ليكسبوا ويغتنوا، فمن تخلف منهم عن الكسب والغنى، فليس المجتمع مسئولاً عنه، وليس الأغنياء مكلفين حمله

والإنفاق عليه، إلا من باب العطف والشفقة وابتغاء المحمدة في الدنيا، أو الثواب في الآخرة لمن يؤمن بها.

وهذه النظرية هي نظرة الرأسمالية الخالصة التي سادت أوروبا في مطالع العصر الحديث. ولا شك أن الفقراء في مجتمع هذا شأنه، وتلك فلسفته، أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.. لا حق لهم يطالبون به، ولا سند لهم يعتمدون عليه.

ولا عجب إن تميزت هذه الرأسمالية في أول ظهورها وعنفوانها بالقسوة البالغة، والأنانية المفرطة، التي لا ترحم صغيرًا، ولا تحنو على أنثى، ولا تشفق على ضعيف، ولا تنظر بعين العطف إلى فقير أو مسكين، مما أكره النساء والصبيان الصغار أن يذهبوا إلى المصانع يعملون بأدنى أجر، حتى لا تسحقهم الرحى الجبارة التي لا ترحم، ولا يدوسهم الأقوياء في مجتمع الغابة الجديد، الذي قست قلوب أهله فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

ولكن هذه الرأسمالية المتجبرة قد اضطرت ـ تحت وطأة الظروف والثورات والحروب وتطور الأفكار والمذاهب الاشتراكية في العالم كله ـ أن تعدل من موقفها، فاعترفت للعاجزين والضعفاء والفقراء بشيء من الحق، ظل ينمو شيئًا فشيئًا ـ بتدخل الدولة وتنظيم القانون ـ حتى انتهى إلى ما يسمى الآن بـ«التأمين الاجتماعي» و«الضمان الاجتماعي» ففي التأمين يدفع المواطن مبلغًا من دخله فى مقابل تأمينه عند عجزه الدائم أو المؤقت، ويكون ما يُعْطَى لكل فرد بنسبة ما دفع قلة وكثرة، ولهذا يكون حظ محدودي الدخل من التأمين أقل من غيرهم من ذوي الدخل الكبير، مع أنهم هم الأكثر حاجة.

أما في الضمان، فالدولة نفسها هي التي تقوم بإعطاء العجزة والمحتاجين إعانات دورية من ميزانيتها العامة، دون أن يكونوا هم قد اشتركوا أو ساهموا بدفع شيء من مالهم.

هـ ـ موقف الاشتراكية الماركسية:

الطائفة الأخرى تقول: إن القضاء على الفقر وأنصاف الفقراء لا يمكن أن يتم إلا بالقضاء على طبقة الأغنياء، ومصادرة أموالهم، وحرمانهم من ثرواتهم من أي

وجه جاءت، وفي سبيل ذلك يجب تأليب الطبقات الأخرى في المجتمع عليهم، وإثارة الحسد والبغضاء في صدورهم وتأليب نيران الصراع بين هذه الطبقات بعضها وبعض، حتى ينتصر في النهاية أكثرها عدداً، وهي الطبقة العامة الكادحة التي يسمونها «البروليتاريا».

ولم يكتف دعاة هذا المذهب بتحطيم طبقة الأغنياء، ومصادرة ما ملكوا، فذهبوا إلى محاربة مبدأ «الملكية» الخاصة نفسه، وتحريم التملك على الناس أياً كان مصدره، وبخاصة الأرض والمصانع والآلات ونحوها مما يسمى «ثروات الإنتاج».

هؤلاء هم دعاة الشيوعية والاشتراكية الثورية... فهناك قدر متفق عليه بين النزعات الاشتراكية كلها ـ متطرفة ومعتدلة ـ هو إنكار مبدأ الملكية الفردية ومحاربته، واعتباره مصدر كل شر، وإن اختلفت وسائلها في محاربته. فبعضها يتخذ الطريق الدستوري الديمقراطي، وبعضها يتخذ طريق التغيير الثوري.

يقول جورج بورجان. وبيار رامبير في كتابهما «هذه هي الاشتراكية».

يقول البعض: «إن الاشتراكية تعني حرية الفرد واحترامه، فيجيب آخرون. بل إنها تمليك وسائل الإنتاج للشعب، والسعي لتثبيت دكتاتورية الطبقة العاملة».

أما نحن فلن نتوقف طويلاً عند هذه المناقشات الحامية، فهي ليست حديثة العهد، وهذا ما لاحظه مكسيم لوروا فقال في كتابه «رواد الاشتراكية الفرنسية»: «لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكية بابوف تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون تتميزان عن اشتراكية بلانكي، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان وكابيه وفورييه وبيكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة تحفل بالأسى والمرارة. ولكن عاملاً مشتركاً يوحد بين هذه الاشتراكيات جميعاً، وهدفاً واحداً ينتظمها ويقرب بينها، وهو إلغاء الملكية الخاصة مصدر كل ظلم، كل جور، وكيف حيف في المجتمع»[1].

---

(١) هذه هي الاشتراكية - ترجمة محمد عيتاني ص ١٣.

أما الاشتراكيـة «الثورية» أو «العلمية» أو «الماركسية» فليس بينهـا وبين الشيوعية إلا فروق ضئيلة. كلاهما يقوم على النظرة المادية للحياة والإنسان.

وكلا المذهبين يحتقر الـدين، ويعـــزله عـن المجتمع، ويدعو إلى دولة علمانية لا دينية، وكـلاهما يقوم على العنف والصراع الدمـوي، وتدمير الأوضاع القـائمة بالقوة والقسوة.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: «والشيـوعية تقصد إلى نفس ما تقصد إليه الاشتراكية، والاشتراكية الخالصة ترمي في النهاية إلى الشيوع، والاشتراكية الثورية هي شيوعيـة بذاتها، لا تفترق عنها إلا في بعض الإجراءات والتـفاصيل الشكلية، ولكن الشيـوعية مذهب ثوري محض فـي جوهره وفي وسائله لا يعرف شـيئًا من الوسائل السلمية والتطورية التي تؤثرها الاشتراكية المعـتدلة، وإذن فالشيوعية تعتمد على الثورة دون غيرها لتحقيق غاياتها ومثلها»[1].

***

(١) المذاهب الاجتماعية الحديثة ص ٩٥.

obeikandl.com